على الطنطاوى وكتابه

في بلاد العـــــرب

بقلم الأستاذ صلاح الدين المنجد

... وها هو ذا الطنطاوى يخرج كتابه الجديد بعد تردد ، وها هو ذا يُلقى بنفسه بين أيدى أهل النقد لينال ما يناله المؤلفون من نقد جارح وتقريظ ناعم ، ومن تهجم لاذع ومداعبة لينة ... ويرى بكتابه إلى الناس ليقرأوه ويشرحوه ، ثم ليطنبوا فى مديحه أو يدركوا به ثأراً قديماً لهم ، فينالوه بالتعريض . فلنشمر إذن مع هذا الناس ولننقد هذا الكتاب كما ينقد الطائر الأرض لينبش منها حبها وزوانها . ولنحدث الناس عن الطنطاوى الذى يخشى الناس غضبه ، ويخافون على أنفسهم منه ، ولنلق بأنفسنا بين يديه يتحدث عنا ما يشاء . فلقد تربصت طويلاً ، وحاولت أن أنقده كثيراً . ولكنى كنت فى كل مرة أغلب على أمرى . أما وقد أخرج الآن كتابه، فلن أبطىء أبداً ، فقد ألقى بنفسه بين يدىّ ، وأصبح كتابه بين عينىّ . وليت شعرى أأمن صديقى على نفسه عند ما أهدى إلىّ كتابه وسألنى أن أكتب عنه ما أشاء ! ...

لقد سمرت يا صديقى مع كتابك طول هذه الليالى المظلمة التى فاجأنا بها هـذا العام الوليد . وكنت أقرأ فيه فأسمع تلك النغمة الحزينة تارة والطروب أخرى التى كانت تتعالى من سطورك وكلماتك ، فتهيج حسى كما أهاجته تلك النغمة التى كان يحدثها المطر وهو يقرع زجاج النافذة ، ويتساقط على أوراق الليمون والبرتقال التى هزتها الريح المولة وروّعها السحاب المتون . والحق أني استمعت إلى نغمتين حزينتين : نغمتك وأنت تصف مآسى هذا الوطن الباكى ، ونغمة المطر وهى تحدّث الأوراق الذابلة . ثم خرجت من الكتاب وأنا أسيان نشوان ، طروب معجب . فاسمح لى يا صاحب الرسالة أن أتحدث عما رأيت وما سمعت

لقد قرأت قولك فى مقدّمة الكتاب إنك كنت فى حرب مع الحياة ، فذكرت بلدك هذا ، وكيف أنكرك ، فلقد اعتادت الشام أن تعظم الجاهل الغريب ، وتحطم النابغ القريب . فلما رأيت ما رأيت تركت دمشق تبتغى مصراً ، فعشت بها أمداً اتخذت فيه من الأماكن والناس أصدقاء لقلبك وأحبة لنفسك ، وأنفقت أيامك فيها فى دار العلوم طالباً وكلية الآداب مستمعاً ، وفى « الفتح » و « الزهراء » كاتباً ومحرراً ، وعند خالك محب الدين الخطيب سعيداً ومستفيداً . ثم بدا لك ... وعاودك الحنين إلى وطنك ، فعدت إليه فعيّنوك للصبيان معلماً ، وقدّموا الجاهلين عليك ؛ فهزأت بهم وسخرت منهم ، وخرجت من بلدك تبتغى العراق فعلّمت فى ثانوياتها الأدب ، ثم قصدت الحجاز وعبرت الصحراء ، ثم عدت إلى بغداد ، ثم رجعت إلى دمشق وإذا بهم يمكرون بك مرة أخرى

ذلك لأنك من هذا البلد ... ولأن هذا البلد قد اعتاد وأد أبنائه ...

عفواً يا بلدى الحبيب !

فتلك شيمة أبنائك ... يكرمون الغريب ولو كان جاهلاً ، ويفسحون له صدورهم ، ويوسعون له فى دورهم ، ويؤثرونه

وفكرى متقد ؛ ولكن يصعب علىّ تحديد هذا الفكر ورسمه على الورق باللغة التى أريدها ، فإن الفكر والشعور يتجمدان تماماً . نحن لا نملك بعد لغة مرنة ولا نحيا حياة أدبية صحيحة . إننا نعرف من المعانى عظاماً قد تسرب السوس إليها من قرون . لأننا فقدنا شهيتنا لتذوق طعم اللحم الطازج . لهـذا السبب أميل إلى الطبقات الشعبية لأنها لم تشبع بعد ولا تزال على فطرتها وسذاجتها . فلعل الشعب يفهمنى »

صديقى العزيز توفيق ! حقاً ! اليوم لا يفهمك ويقدرك حق قدرك سوى بعض المستشرقين الذين فى وسعهم مطالعة أعمالك وتفهمها على وجه صحيح، وكذلك فئة قليلة من المصريين المثقفين؛ ولكن صبراً ستتطور أفهام الجماهير ، وستنمو لشعبك أسنان جديدة؛ ويومئذ يقبلون على التهام آثارك الأدبية الشعبية

ثم تكلم الكاتب بعد ذلك عن شهرزاد وأهل الكهف وعودة الروح وحياة محمد، ثم ختم مقاله بقوله : ومهما يكن من شىء فإن الذى أعتقده وأومن به أن توفيق الحكيم يستحق تعضيد العالم العربى ، فيقدر جهوده الفكرية حق قدرها ويعنى بتفهمها على وجهها الصحيح ليسر للشرق المضى فى السير نحو مثله الأعلى.

على أنفسهم ... ويموتون هم من الجوع ... فإذا تولى عنهم رماهم بكل قبيح ، ولكنهم يصفحون عنه ، ويبسمون لاستقبال غريب آخر ...

نعم ، تلك شيمتك وشيمة أبنائك يا بلدي ...

* * *

ولقد أعجبني أنك ظهرت في كتابك أديباً حقاً ، يهزك كل شيء ، وتحن إلى كل شيء ... والأديب الحق من إذا رأى شيئاً أثر فيه ، فحرك نفسه ، ودفعها إلى الكتابة . لقد طوفت في ربوع الشام ... فحركت نفسك روائح دمشق ، هذه الزهرة الناعمة التي نبتت على أطراف الصحراء ، يسقيها بردى بدموعه ، ويحرسها قاسيون الجليل بنفسه ، والتي يسعى إليها الملوك ليتمتعوا بنظرة منها ، ويستنشقوا عطرها ... فوصفت ما رأيت وأبدعت. وقد أعرض قومك عن تلك الروائع ولم يحفلوا بها، ثم ذهبت إلى العراق ، فرأيت وسمعت ، وتذكرت الماضي المجيد يرقص على شطآن دجلة ، ويرتع في جنبات بغداد ، فقلت عنه ما قلت ، ثم أوليت العروس حبك ... فلما رأيت الإيوان هاج حبك ، ثم زرت سر من رأى ، فهاجت شجونك ... وأنت في كل مرة تكتب وتغني. ثم ذهبت إلى الحجاز — فذكرت محمداً سيد العالم — عليه صلوات الله وسلامه ، ورأيت النور ينبثق من هاتيك النجود ، فيغمر الدنيا ... فذرفت دمعة على الماضي الفخم يواريه أبناؤه التراب ولا يحفظونه ، ويستبدلون بالعز ذلاً ، وبالحرية قيداً ، وبالسيادة عبودية . ثم ذكرت العقيق وأيامه، وسمعت الشعر الطروب والغناء الراقص والحب الرفاف ... فحننت ووصفت ، ثم عدت إلى بيروت فهمت على سيف هذا البحر الحبيب ، وشردت في الجبال الخضر ووصفتها أيضاً ، وأنت في كل مرة تذكر وتبكي ، وفي كل مرة تحن وتطرب ، وفي كل مرة تدع قطعة من قلبك هنا ... وقطعة منه هناك ...

فقل لي ما بقي من قلبك يا صديقي !

لقد نثرته هنا وهناك ... « في بلاد العرب » فكيف تعيش بدون قلب ؟ وكيف تحيا بدون فؤاد ؟

* * *

وميزة أخرى أعجبتني ... ذلك أنك لست أديباً فقط ، ولكنك أديب إقليمي . والأدب المحلي ينقصنا يا صاحبي . وكما أن بمصر أدباً محليًّا ، فيجب أن يكون مثله في شامنا وعراقنا وحجازنا ، وأن تبدو في كل أدب مظاهر القوم وشعورهم وعواطفهم . ومجموع هذه الآداب كلها يؤلف الأدب العربي في القرن العشرين ، كما ألف الأدبَ العربي من قبل أدبُ الشام ، وأدبُ العراق ، وأدب الأندلس . ولو حاولنا أن نبحث عما أنتجه أدباء الشام في أيامنا ، وما ظهر فيه أثر الشام جنة الله ، ومهبط السحر ، وينبوع الإلهام ، لوجدته قليلاً نادراً

أين من وصف سورية الجميلة الوادعة ؟

وأين من كتب عن سورية أم الأبطال ؟

وأين من أشاد بذكر الوطن ، فبكى آلامه ، ومجد أفراحه ، وحن إليه ؟ ...

أين الأدب الذي يبدو فيه غلظة نفوسنا عند الكريهة وصفاءها في الأمن والسلم ؟

أين ... أين ... !

كل ذلك لن تجد منه إلا قسما واحداً عند أدبائنا كلهم ... أما أنت ... فعندك كل شيء ... فأهنأ فأنت « كاتب الوطن »

* * *

ولست في كتابك أديباً دمشقيًّا، ولكنك أديب مسلم عربي. إنك لم تنس العراق فأشدت بأيامه الخوالي ، وبكيت بطله غازي ومجدت أباه فيصل ؛ ثم ذكرت فلسطين فوصفت بؤسها وجمالها ورجالها وجبل نارها ؛ ثم وصفت مصر وعظمتها ، وكتبت عن الحجاز ماضيها وحاضرها ...

فيا أهل الشام !

إذا أردتم أن تسمعوا الأغاني التي قيلت في بلادكم ... وتعلموا أن ربوعكم ربوع شعر وبشر وعطر فاقرأوا هذا الكتاب

ويا أهل العراق !

إذا أردتم أن تسمعوا أناشيد محب لبلدكم ، عاشق لها ، بكى مليكها ، ومجّد بطلها ، وأشاد بماضيها ، فاقرأوا هذا الكتاب

ويا أهل مصر !

إذا أردتم أن تعلموا شيئاً عن هذه البلاد العربية ، وتروا ما فيها من جلال وجمال وما أصابها من ألم وأسى ، وتسمعوا أقاصيص هذه البلاد التي تهفو قلوبها إليكم ... فاقرأوا كتاب الطنطاوي الشامي المسلم العربي : « في بلاد العرب »[1]

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(١) وسنعود إلى نقد الكتاب من حيث اللغة والأسلوب والفن